درس ادبي تاريخي
بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت
الاميركية

١٢ (تتمة)

الغزل (تابع)

ويجب ان نذكر هنا ان ابن عبد ربه — على هذه القيود المختلفة التي قيّد بها نفسه — قد وفق في بعض مقطوعاته الغزلية . وليس غريباً ان يكون بعض الشعر الموضوع لغرض خاص علمي او مادي ممثلاً لعاطفة صادقة قويّة. فقد يكون بعض شعر المدح مأجوراً ويكون بالوقت نفسه صادق العاطفة صحيح العقيدة . ويكون بعض شعر الغزل تمثيلاً وتخيلاً ويكون جميل الصورة قوي الخيال ، سائغ المعاني ، صحيح العاطفة ، صادراً عن نفس حساسة تتمثل ما الفته وعانته فتحسن التعبير عنه . وقد لاحظنا ان ابن عبد ربه قد وفق في معارضته لصريع على تأثره له من ناحية القافية والبحر وبعض الالفاظ والمعاني والاستعانة بالبديع وعلى كونه لم ينظم معارضته هذه اثر حادثة خاصة مع حسناء خاصة . ولعل من الخير ان نروي لك بعض هذه المقطوعات :

من محبّ شفّه سقمه ، وتسلاشى لحمه ودمه ،
كاتب حنت صحيفته ، وبكى من رحمة قلمه ،
يرفع الشكوى الى قمر ينجلي عن وجهه ظلمه .
من لقرن الشمس جبهته ، ولسلم البرق مبتسمه .
خلّ عقلي يا سقمه ، ان عقلي لست اقسمه .
« للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه . » (١

(١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠١

وقوله :

اعطيتُه ما سألا ، حكمته لو عدلا .
وهبته روحي ، أنا ادري به ما فعلا ؟
اسلمته في يده عيّشه ام قتلا ،
قلبي به في شغل لا ملّ ذاك الشغلا
« قيّده الحب كما قيّد راعٍ جملا » (١

وقوله :

يا مقلة الرشأ الغرير ، وشفة الثغر المنير ،
ما رتعت عيناك لي ، بين الاكلة والستور ،
الا وضعت يدي على قلبي ، مخافة ان يطير .
هبني كبعض حمام مكّـ ـة ، واستمع قول النذير :
« أنيّ لا تظلم بمكّـ ـة لا الصغير ولا الكبير » (٢

واذا تعدّينا هذه المقطوعات التي لم يوفق في اكثرها ، وجزنا هـذا الشعر الذي تحدّى فيه بعض شعراء المشرق مكتفياً بتقليدهم ، ودرسنا ما بقي من شعره التغزلي نرى فنه هذا واضحاً جليّاً . وهو في هذا الشعر يمثل الفن الاندلسي بوجه عام من حيث تفوقهم بالوصف والخيال ، ومن حيث الجزالـة والسهولـة باللفظ والرقة واللين والعذوبة ، وعدم تحميلهم اياه اكثر مما يطيق من المعاني . ونرى في شعره هذا عاطفة قويّة صادقة لم نعرف مثلها في شعره في الهجاء والمدح والزهد واسمع قوله في الفراق :

ودعتني بزفرة وامتقاع ، ثم نادت : متى يكون التلاقي !
وصدّت ، فاشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق .
يا سقيم الجفون من غير سقم ، بين عينيك مصرعُ العشّاق .
ان يوم الفراق افظعُ يوم . ليتني مت قبل يوم الفراق ! (٣

او قوله :

هيّج البين دواعي سقمي ، وكسا جسمي ثوبَ الالم .
ايها البين ، أقلني مرةً ، فاذا عدت فقد حلّ دمي .
يا خليّ الذرع ، كم في غبطةٍ ، ان من فارقته لم ينم .

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٨ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٠٦
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢

ولقد هاج لقلبي سقماً ذكرُ مَن لو شاء داوى سقمي (١

تحسّ ان هذه العاطفة قوية عنيفة ، وهذه المعاني سائغة محبّبة الى النفس ، مع انها تصف الم الفراق ، وتر هذه الالفاظ رقيقة عذبة سهلة ملائمة موضوعها.

ونظرت اليه فتاة تبكي فقال فيها شعراً منه :

وكأنما غاص الاسى بجفونها حتى انساك بلؤلؤ منثور (٢

وفي هذا البيت تصوير جميل لمعنى مألوف وضعه بشكل يكاد يكون مبتكراً تخيّل فيه الاسى غوّاصاً في الجفون عائداً بلؤلؤ منثور . وقد اعجب هو نفسه بشعره هذا ، وقال عنه «انه من رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذي لا نظير له والغريب الذي لم يسبق اليه » (٣

وقال ايضاً :

ادعو عليك ، فلا دعاء يسمع ، يا من يضرّ بناظريه ، وينفعُ .
للورد حينٌ ليس يطلع دونه ، والورد عندك كل حين يطلع .
لم تتدع كبدي عليك لضعفها ، لكنها ذابت ، فما تتصدّع .
من لي باجود ما يبين لسانه خجلٌ ، وسيفُ جفونه ما يقلع ،
منع الكلام سوى اشارة مقلةٍ فيها يكلمني ، وعنها يسمع (٤

وله ابيات نختم بها كلمتنا في شعره الغزلي ، لا يكاد يفرغ منها القارئ الا ويحسّ بالاعجاب فيها ويشعر ببراعة ابن عبد ربه في التعبير عن شعوره وحبه.

بزمام الهوى امتُّ اليه ، وبحكم الهوى اقضي عليه ،
بابي من زها عليّ بوجهٍ كاد يبدي لما نظرت اليه !
تأول الكاس واستمل بلحظٍ فسقتني عيناه قبل يديه. (٥

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢ ؛ اما الشالي (١ : ٢٥٧) فيروي هذه الابيات والتي سبقتها لرجل باسم « حبيب بن احمد الاندلسي » . ولعله قد اخطأ في نقله الاسم فقلب « احمد بن حبيب الاندلسي » الى ما ترى . لاسيما وان ابن عبد ربه يقول في عقده عن هذه الابيات « ومن قولنا في البين » وقد اشرنا قبلاً الى ان الشالي جعل من ابن عبد ربه صاحبنا شخصين فذكر اشعاراً للاول (١ : ٢٦٠) وسماه احمد بن عبد ربه الاندلسي وذكر الثاني باسم احمد بن محمد بن عبد ربه وروى له اشعاراً في (١ : ٤١٣) والاشعار في كلا الموضعين مذكورة اكثرها في العقد منسوبة لصاحبه ابن عبد ربه .

٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦ ٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦

٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٦ ٥) الشالي ١ : ٢٦١

الرثاء

اما شعره في الرثاء فيكاد ينحصر باهله وذويه ، وبالاخص بن فقد من بنيه . ومع ان هذه القصائد قليلة جدًا ، فان الواقف عليها لا يستطيع ان يكتم اعجابه في قوة معانيها ومبانيها . ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان ارقّ شعر له واصدقه عاطفة واقواه شعورًا هو شعره في مرض ولديه ورثائهما . وترى ان ابن عبد ربه في احدى هذه القصائد ذا نفس حساسة متألمة ينظر الى ابنه المريض يتقلب على فراش الموت بين يديه ، وقد اعيا الطبيب مرضه ، فيبعث في ذلك الظلام دُعاء الى الله من قلب يتحرك بعاطفة عنيفة صادقة كلها حب ورحمة وحنان وامل :

« بنيَّ ، لئن اعيا الطبيب بن مسلم ضناك ، واعيا ذا البيان المشيّع ،
لابتهلنّ ، تحت الظلام ، بدعوة منى يدُوِها داعٍ الى الله يسمع ،
تقلقل من بين الضلوع نئيجُها ، له شافع من عبرةٍ وتضرعِ
الى فارج الكرب المجيب لمن دعا فزعت بكربي ، انه خير مفزع !
فيا خير مدعوّ ، دعوتك ، فاستمع ! وما لي شفيعٌ غير فضلك ، فاشفع ! (١

ويراه ميتاً امامه ثاوياً في قبره فتتقطع كبده وتذوب حشاه ويهلع فؤاده ويكاد يموت عليه كمدًا :

واكبدا ! قد تقطعت كبدي ! قد حرقتها لواعج الكمد !
ما مات حيٌّ ليت اسفًا احذر من والدٍ على ولد .
يا رحمة الله ، جاوري جدثًا دفنت فيه حُشاشتي يدي .
اي حشًا لم يذب له اسفا ؟ واي عين عليه لم تجد ؟
لا صبر لي بعده ، ولا جلد ، فجعت بالصبر فيه والجلد .
لو لم امت عند موته كمدًا ، لحق لي ان اموت من كمدي .
يا لوعةً لا يزال لاعجها يقدح نار الاسى على كبدي . (٢

وتمر الايام فتعاوده ذكراه المؤلمة ، فيتمنى لو يموت ويطوى موضعه ويدرج في اكفانه :

بليت عظامك ، والاسى يتجدّد ، والصبر ينفد ، والبكا لا ينفد !
يا غائبًا لا يرتجى لايابه ولقائه ، دون القيامة ، موعدُ ،

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٩٨ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٢

ما كان احسن ملحداً ضمته ، لو كان ضمّ اباك ذاك الملحدُ !
باليأس اسلو عنك ، لا بتجلدي . هيهات ! ابن من الحزين تجلّدُ ! (١

وله فيه ايضاً :

يا سيدي ومزاج الروح في جسدي ، ملّا دنا الموت مني حين منك دنا !
حتى يبرّ بنا في قبر مظلمة لحدٌ ، ويلبسنا في واحد كفنا !
يا اطيب الناس روحاً ضمّه بدنٌ ، استودع الله ذاك الروح والبدنا !
لو كنت افطى به الدنيا معاوضةً منه ، لما كانت الدنيا له ثمنا . (٢

اما ولده الآخر فقد تناوله الموت وهو طفل ، ولم يكن جزعه عليه باقل من جزعه على اخيه الاكبر :

على مثلها من فجعة خانك الصبر ! فراق حبيب دون اوبته الحشرُ !
ولي كبد مشطورة في يد الاسى : فنحت الثرى شطر ، وفوق الثرى شطرُ .
يقولون لي : صبّرْ فؤادك بعده . فقلت لهم : ما لي فؤادٌ ، ولا صبرُ .
فُريخ من الحسر الحواصل ما اكتسى من الريش حتى ضمه الموت والقبرُ .
اذا قلت : اسلو عنه ، هاجت بلابل بجدُّدها فكر يجدّده ذكرُ .
وانظر حولي ، لا ارى غير قبره ، كأنّ جميع الارض عندي له قبرُ .
افرخَ جنان الخلد طرتَ بهجتي ، وليس سوى قبر الضريح لها وكرُ . (٣

الوصف

وقد رأينا ان نفرد للوصف باباً خاصاً لما لابن عبد ربه من الشعر في الرياض والجنائن ، ذكر بعضه في عقده في باب اقوال العرب في الرياض . وهو في هذا الوصف — شأن شعراء الاندلس - متفوّق على الكثيرين من شعراء المشرق . ويظهر انه قد كان لهذه المناظر المبهجة المختلفة في بلاد الاندلس تأثيرٌ في نفوس هؤلاء الشعراء ، فردّدوا ذكر جمالها ، ووصفوا بهيج منظرها بلفظ انيق ومعنى رقيق . واليك مثلاً من شعره هذا :

وروضة عقدت ايدي الربيع بها نوراً بنور ، وترويجاً بترويج ،
بلفح من سواريها ، وملحمة ، ونافح من غواديها ، ومنتوج ؛
توشحت ببلاة غير ملحمة من نورها ، ورداء غير منسوج ،
فالبست حلل المرثيّ زهرتها وجلّلتها باغاط الدبابيج . (٤

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٣
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٥
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨
٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٧

وله ايضاً :

وموشية يهدي اليك سبيها على مفرق الارواح مسكاً وعنبرا
سداوتها من ناصع اللون ابيض ، ولحمتها من فاقع اللون اصفرا
يلاحظ لحظاً من عيون ، كأنها فصوص من الياقوت كلسن جوهرا (١

وله ايضاً من شعر وصف فيه روضة ثم تخلص الى الممدوح :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى برودًا من الموشي حمر الشقائق ،
يقيم الدجى اعناقها ، ويميلها شعاع الضحى المستن في كل شارق ،
اذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعين مكللة الاجفان صفر الحمالق ،
حكت ارضها لون السماء ، وزانها نجوم كامثال النجوم الخوافق ،
باطيب نشرًا من خلائقك التي لها خضعت في الحسن زهر الخلائق . (٢

ولم تنحصر قدرته على الوصف الجميل في ما يختص بالرياض فحسب بل تعدّت الى غير الرياض . فضرب بسهم وافر منه في كل ابواب الشعر التي طرقها ، ولعلّ القارئ قد لمس شيئاً من هذا فيما اوردنا من الامثلة عن شعره في مختلف الفنون التي ذكرنا . وقال يصف فرساً :

ومقربة يشقّ في النقع كمتها ، ويغضرّ حيناً كلما بلّه الرشحُ
تطير بلا ريش الى كل صيحة وتسبح في البرّ الذي ما به سبحُ . (٣

وقال في فتاة :

ازف الرحيل فودعتني بقبلة اوحت اليّ جفونها بسلام ،
وتظلمت بين الحدوج ، كأنما شمس تطلّع في خلال غمام ،
وشكت بتاريح الصبابة والهوى بمدامع نطقت بغير كلام ؛
كدهاة رمل قد تربعت الحمى بين الظباء النفر والآرام ،
حتى اذا ضرب المضيف رواقه صافت ظلّ اراكة وشآم . (٤

وقال في اخرى :

ذات دلّ ، وشاحها قلقُ من خور ، رجلها شرق ،
بزّت الشمس نورها ، وحباها لحظ عيني شادن خرق ،
ذهبٌ خدّها يذوب حياءً وسوى ذاك كله ورق . (٥

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٧ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٧
٣) ابن عبد ربه ١ : ٦٠ ٤) الثعالبي ١ : ٢٦١
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢١٢ وورق بمعنى فضة

ويظهر انه كان يرغب في التشابيه فقد اكثر منها في شعره . وقد وفق في ايرادها . ولعلّ القارئ قد لاحظ هذا فيما ذكرنا له من شعر صاحبنا . وانظر بهذه المناسبة الابيات الميميّة الخمسة التي سبقت هذا الكلام.

والخلاصة ان ابن عبد ربه قد تعرض في شعره الى فنون كثيرة وفق في بعضها ، ولم يوفق كثيراً في البعض الآخر . فقد اجاد في باب الغزل والرثاء اكثر مما اجاد في المدح والهجاء . واتى في بعض الفنون بمعانٍ جديدة وتشابيه جميلة ، بينما كان في البعض الآخر متكلفاً في اكثر الاحيان . اما ديباجة شعره فانها بوجه عام جميلة . فقد كان سبكه جيداً واضحاً ، بريئاً من التعقيد ، فيه رشاقة وطلاوة ، وكان لفظه سهلاً رقيقاً عذباً فيه رونق وحلاوة . لم يقيده بالبديع الا قليلاً ، وذلك حيث جاء البديع على السجية ؛ ولم يحمله اكثر مما يطيق من المعاني . وهو بهذا يمثل الفن الاندلسي الشعري بوجه عام.

الموشحات

بقي الموشحات . وقد نسب الى ابن عبد ربه انه نظم كثيراً منها ، وانه كان من الاول الذين اخترعوا هذا الفنّ ببلاد الاندلس . ونريد قبل كل شيء ان ندوّن هنا اننا لم نعثر ، في كل المصادر التي بين ايدينا حتى في العقد نفسه وفي اليتيمة ، على موشح ما من هذه الموشحات التي زعم البعض ان ابن عبد ربه نظمها . واذن فبحثنا الآن في امر الموشحات هو من قبيل درس هذا الزعم وتثبيت هذه النظرية او ردّها ، لا من قبيل النظر في شعر ابن عبد ربه الموشح المزعوم ومعرفة خصائصه وميزاته.

اما اول من ذكر ان ابن عبد ربه نظم الموشحات فابن بسام . فقد ذكر في كتابه «الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة» شيئاً عن عبادة بن ماء السماء اتى فيه على ذكر ابن عبد ربه وما نسب اليه من نظم الموشح . وقد كنّا ذكرنا قبلاً اننا لم نوفق في الاطلاع على نسخة خطية من الذخيرة التي لم تطبع بعد ، واننا رجعنا الى بعض الذين اخذوا عنها كالصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» او الدكتور ا. ر. نيكل الذي ترجم هذا النصّ الذي يهمنا في مقدمته لترجمة

طوق الحمامة . غير اننا الآن قد عثرنا على النص الاصلي مرسوماً زنكوغرافياً في كتاب المستشرق ريبيرا *Disertaciones y Opusculos*, Madrid, 1928 قبالة صفحة ١٠٢ من الجزء الاول ، ومطبوعة بحرف مغربي في الصفحات من ٩٩ الى ١٠١ ، نقلاً عن نسخة مكتبة باريس الوطنية وهذا هو النص :

« قال ابو الحسن وكان هذا ابو بكر [عبادة بن ماء السماء] في ذلك العصر شيخ الصناعة وامام الجماعة سلك الى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً واهلاً وكانت صنعة التوشيح التي نهج اهل الاندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود فاقام عبادة هذا مناداها ومرسلها ومتادها(١) . فكافاها تسع بالاندلس الا منه ولا اخذت الا عنه واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته وهي اوزان كثر استعمال اهل الاندلس لها في الغزل والنسيب تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب واول من صنع اوزان هذه الموشحات بافقنا واخترع طريقتها فيما يلفني محمد بن معاقر العمري الضرير وكان يضعها على اشطار الاشعار غير ان اكثرها على الاعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ امي (٢ والعجمي فيسيه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا اغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد اول من سبق الى هذا النوع من الموشحات ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان اول من اكثر فيها من التضمين في المراكيز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة فاستمر (٣ ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني ابي الحسن ثم نشا عبادة هذا فاحدث التصغير [التضفير] وذلك انه اعتمد مواضع الوقف في الاغصان فيضعها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز واوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض كتابنا هذا اذ اكثرها على غير اعاريض اشعار العرب . »

ثم عقب ابن بسام الصلاح الكتبي ، فذكر في كتابه « فوات الوفيات » ترجمة لحياة الشاعر عبادة بن عبدالله (ابن ماء السماء) نقلها فيما يظهر عن ابن بسام(٤) ، وقال في آخرها شيئاً قد يكون منه والارجح انه مما نقل عن ابن بسام هو :

« واول من صنع اوزان الموشحات محمد بن محمود المغربي الضرير وقيل ان ابن عبد

---

١) في نسخة تونس « وقوم ميلها وسنادها » راجع كتاب ريبيرا المذكور في الموضع المذكور .

٢) لعلها العامي ، راجع كتاب ريبيرا المذكور في الموضع المذكور .

٣) لعلها « استمر على » او « استمرأ »

٤) الكتبي ١ : ٢٥٥ قال ابن بسام . . .

ربه صاحب العقد اول من سبق الى هذا النوع من الموشحات ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي ثم نشأ عبادة.» (١

وعقب الصلاح الكتبي ابن خلدون، فذكر في مقدمة تاريخه في باب الموشحات والازجال للاندلس خبر استحداث اهل الاندلس لفنّ الموشح قال:

« واما اهل الاندلس فلا كثر الشعر في قطرهم وعذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنسيق فيه النهاية استحدث المتأخرون منهم فنّاً سموّه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسنّون التعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر الطلة واكثر ما ينتهي عندهم الى بيعة ابيات ويشتمل كل بيت اغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني. واخذ ذلك عنه ابو عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكدت موشحاتها.»(٢

ويظهر في هذه الروايات كلها شيء من التشويش. فالمخترع للموشحات برواية ابن بسام هو محمد بن محمود العمري الضرير، وفي رواية الكتبي هو محمد بن محمود المقبري الفرير، بينما هو في رواية ابن خلدون مقدم بن معافر الفريري. كذلك هناك اختلاف في اسم ابن عبد ربه فهو عند ابن خلدون ابو عبدالله احمد بن عبد ربه، وقد سبق لنا ان اظهرنا الخطأ في هذه الكنية. ولا يسعنا بعد هذا التشويش ان نقبل هذه الاخبار كما هي، او ان نكتم استغرابنا لنقل نفر من ادبائنا بعض هذه الاسماء عن ابن خلدون او غيره دون ان يضبطوها او يتحققوا من امرها(٣.

اما المستشرقون فقد درسوا هذه الناحية درساً دقيقاً، واعاروا هذا التشويش والاضطراب التفاتهم. فمنهم هارتمن وقد ذكرنا رأيه في كلمة «ابو عبد الله» (هذه الكنية التي دونها ابن خلدون لابن عبد ربه) الذي نشره في

١) الكتبي ١: ٢٥٥ قال ابن بسام...

٢) ابن خلدون: ٥٤٠، وطبعة مصر سنة ١٢٧٦ صفحة ٣٠٥

٣) اطلب كتاب «نظرات في تاريخ الادب الاندلسي» (محاضرات للاستاذ كيلاني في الجامعة المصرية) صفحة ٢٢٢

كتابه « الموشح » «*Das Muwaššaḥ*» والذي يظهر منه ان هارتمن يرى ان صاحب العقد لم تكن له علاقة بالموشح[1] .

ومنهم بروكلمن فقد اتى في الموسوعة الاسلامية على ترجمة مختصرة لابن عبد ربه صاحب العقد ذكر فيها ان بين اشعار ابن عبد ربه التي اطلع عليها الحميدي كان هناك موشحات له *Among his poems, of which al-Ḥumaidi was acquainted with more than 20 volumes, there were Muwashshahat.*[2]

ولا ندري ايعني بروكلمن ان الحميدي ذكر هذا ام انه يظن انه في ديوانه الذي اطلع على بعضه الحميدي يجب ان تكون قد وردت هذه الموشحات ؟ والغريب انه ليس بين كل المصادر التي دونها بروكلمن في مقالته بالموسوعة المذكورة عن حياة ابن عبد ربه ما يشير الى ان ابن عبد ربه نظم الموشحات من الشعر : فمن اين اتى بروكلمن بهذا الخبر ؟ والغريب ايضاً ان بروكلمن قد رجع الى كتاب هرتمن في الشعر الموشح وذكره في جملة مصادره ولكنه لم يعرض لرأيه في ان ابن عبد ربه احمد بن محمد المكنى بابي عمر صاحب العقد لم ينظم الموشح ، ولم نعلم ما اذا كان بروكلمن يقبل رأي هرتمن هذا ام يرده .

ومنهم ريبيرا فقد ذكر في كتابه « الموسيقى في الجزيرة العربية وفي اسبانيا » ونرجع الى الترجمة الانكليزية — « ان رجلاً من بيت ابن عبد ربه بصعب تعيينه قد تبع مقدماً بنظم الموشحات . » ثم يقول : « والذين يقرأون ابن بسام يظنون ان هذا الرجل هو صاحب كتاب العقد ، انما ليس لدينا ما يثبت هذا . » ثم يقول : « واظن ان ابن عبد ربه صاحب الموشحات كان ابن اخ صاحب العقد واسمه ابو عمر سعيد بن عبد ربه . وكان طبيباً وشاعراً ومات سنة ٣٤٢ هـ وكانت ميوله مخالفة لميول عمه الذي كان عربيّ النزعة من اتباع القديم . » ويورد ريبيرا قصة عنه يأخذها عن كتاب التكملة لابن ابار فيها ان

(١ Hartmann, p. 23

(٢ Brockelmann, *Ibn ʿAbd Rabbihi* [Encyc. of Islam, vol II, p. 353]

سعيداً هذا كان لا يأنف من استعمال لهجة غير مألوفة في كلامه حتى مع الخلفاء، مما يدل على انه كان يميل الى الخروج عن سبل القديم ويترع الى غيرها. ويقول ريبيرا: «ان ابن ابي اصيبعة قد ذكر ان هذا الشاعر عمي آخر حياته» ويظن المستشرق انه «في ذاك الزمن ربما نظم الموشحات هذه التي فيها خروج عن طرق العرب المألوفة في النظم.»[1] ولكن فات ريبيرا ان ابن ابي اصيبعة ترجم لرجل باسم سعيد بن عبد ربه ولكن بكنية ابي عثمان[2] لا «ابي عمر». كما وان كنية الرجل هذا في التكملة هي ابو عثمان[3] ايضاً لا «ابو عمر» ..ترى - هل كانت الكنية التي وضعها ريبيرا لسعيد هي الكنية الصحيحة وان عثمان محرّفة عن عمر؟ ولكن ما المصدر الذي استند اليه في ذاك؟ ولماذا لم يشر الى امر اختلاف الكنية او امر التحريف الذي زعمنا امكانية وقوعه؟ والظاهر ان الشخص الذي يشير اليه ريبيرا هو الشخص نفسه الذي ترجم حياته ابن ابي اصيبعة فذكر انه كان طبيباً وشاعراً، وانه كان ابن اخ ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد، واورد عنه نادرة وقعت له مع عمه هذا وهو نفسه صاحب الترجمة في كتاب التكملة لابن ابار.

ومنهم ايضاً المستشرق الدكتور نيكل فقد تعرّض لهذا الموضوع في مقدمة ترجمته لكتاب «طوق الحمامة» لابن حزم، واتى على اكثر آراء هؤلاء، مبدياً ملاحظات قيمة هنا وهناك[4]. غير اننا لا نرى فيما كتبه ما يهمنا من هذه الناحية التي نتعرض لفحصها.

نستخلص من هذا كله انه يصعب جداً ان نقطع ان صاحب العقد احمد ابن عبد ربه المكنى بابي عمر قد نظم شيئاً من الشعر الموشح بحيث عرف فيه، لاسيما اذا ذكرنا ان ابن عبد ربه صاحبنا قد افرد كتاباً خاصاً في عقده للشعر، تصدّى فيه لدرس بحوره ومجزوءاتها، ووضع لكل منها امثلة من نظمه كما وانه نظم ارجوزة خاصة تعرّض فيها لاعاريض الشعر وعلل قوافيه، وبحث بها

---

١) Ribera, p. 126 ٢) ابن ابي اصيبعة ٢: ٤٤

٣) ابن ابار ٢: ٧١٠ رقم ١٩١٥: سعيد بن... ابن اخي الاديب ابي عمر... كنيته ابو عثمان وكان اديباً شاعراً الخ

٤) Nykl, p. LXXXV seq.

في الاسباب والاوتاد والزحاف وكل ما عرفته العرب مما يطرأ على الشعر، ووضع دوائر عليها خطوط تشير الى الحروف الساكنة والمتحركة في كل تفاعيل البحور، ونظم مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض. ولكنه في كل هذه الابواب لم يذكر موشحاً ما، ولم يشر الى فنّ الموشح، ولم يلمح الى انّ له بدءاً او اثراً فيه، او انه نظم عليه. مع ان اكثر الشعر الذي اورده مثالاً على البحور المختلفة ومجزوءاتها كان من نظمه.

...واملّ ربيرا لم يكن بعيداً عن الصواب حين لاحظ ان ميول ابن عبد ربه صاحب العقد، كانت تنزع الى المحافظة على القديم والتمسّك به. فقد ذهب ابن عبد ربه في مبدأه من المحافظة على ما الفته العرب الى نقد خروج الخليل ابن احمد عن بعض الامور المعينة في عروض الشعر قال في ارجوزته:

هذا الذي جرّبه المجرّبُ من كل ما قالت عليه العربُ
فكل شيء لم تقل عليه، فانّا لم نلتفت اليه.
ولا نقول مثل ما قد قالوا لانه من قولنا محالُ،
فانه لو جازَ في الابيات، خلافها، لجاز في اللغات.
وقد اجاز ذلك الخليلُ ولا اقول فيه ما يقولُ.(١)

ولعل القارئ لاحظ ما اورده ابن بسّام من حيث ان العمري، واضع الموشح، كان في اغلب الاحيان يخرج الى الالفاظ الغريبة (الاعجمية) والى الاوزان التي لم تعرفها العرب ولم تألفها. فيستبعد والحالة هذه ان يتبعه ويشايعه في هذا الامر ابن عبد ربه صاحبنا، وقد عرف عنه حبّه للقديم وتقليده للشرقيين العرب، وميله لنقد من يخرج على بعض النظم المألوفة، وكرهه للنصارى وقربه من الامراء الحاكمين، ومعيشته في قرطبة التي كانت اكثر البلدان الاندلسية اتصالاً بالحياة العربية واللغة العربية.

ولنلاحظ ايضاً كلمة ابن خلدون في ان الاندلسيين قد استحدثوا هذا الفنّ لما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، وان المتأخرين منهم هم الذين استحدثوه. ولا نظن ان ابن عبد ربه صاحبنا يحسب من المتأخرين. زد على ذلك انه كان من الطبيعي — اذا كان

(١) ابن عبد ربه ٣: ١٩٨

ابن عبد ربه قد نظم الموشح — ان يقع ذاك في شبابه . وعندئذٍ يستبعد جداً ان ينشأ الموشح وتتذاك ثم لا يؤتي ثمره الا في اول القرن الخامس للهجرة. ولنذكر ايضاً ان لابن عبد ربه صاحبنا اقارب تأخروا عن زمنه عرف بعضهم في الشعر والخروج على القديم كابن اخيه الذي ذكرنا ، وعرف بعضهم في انه يكنى بالكنية التي ذكرها ابن خلدون « ابو عبد الله» وقال عنه المقّري «انه كان شاعراً وكاتباً وانه من حفداء صاحب كتاب العقد ».

كل هذا يدفعنا الى ان لا نقطع في الامر. ولعل من الخير ان نشير الى انه من الممكن ان يكون بعض القدماء نسبوا هذه الموشحات الى واحد من آل ابن عبد ربه ، ثم لشهرة الاسم اضاف اليه تابعوهم « صاحب العقد » ، او ان يكون في الاصل ذكر لقرابة صاحب الموشحات بابن عبد ربه « صاحب العقد»، فسقطت لامر ما الكلمة التي تشير الى هذه القرابة كأن تكون مثلاً « حفيد» ابن عبد ربه صاحب العقد ، فاهملت كلمة « حفيد » فبقي ابن عبد ربه صاحب العقد ، واختلط الامر على المتأخرين. ومن يدري ايضاً لعل ابن عبد ربه صاحبنا هو صاحب هذا الاثر في الموشحات ، ولكن القرائن التي تدلّ على ذاك والآثار التي تشير اليه ، والبراهين التي تثبته قد ضاعت كلها او اكثرها فالتبس الامر علينا.

ومن الخير ان نشير في آخر هذا الفصل عن شعر ابن عبد ربه الى ان صاحبنا ظلّ ينظم الشعر الى ايامه الاخيرة بعد اصابته بالفالج. ويروي لنا الضبي ان آخر شعر قاله ابن عبد ربه كان قبل موته باحد عشر يوماً ، وفيه بيان مبلغ عمره وذكر علته :

بليت ، وابلتني الليالي بكرها ، وصرفان للايام معنوران .
وما لي لا ابلى(١ لسبعين حجة وعشر اتت من بعدها سنتان !
فلا تسألاني عن تباريح علتي ، ودونكما مني الذي تريان .
واني بحمد الله راجٍ لفضله ، ولي من ضمان الله خير ضمان ،
ولست ابالي عن تباريح علتي ، اذا كان عقلي باقياً ، ولساني.(٢

١) في ياقوت ٣ : ٦٩ ابكي. ولعل الصواب « ابلى ». وقد وردت هكذا في الضبي.
٢) الضبي : ١٣٦ (انتهى)